

الكتاب الجامع للفضائل

(٥٧)

فضل التوبة

الشيخ/ ندا أبو أحمد



فضل التوبة

مَهَيِّدٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مَضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله - تعالى -، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

فضل التوبة النصوح:

شروط التوبة:

علامات صحة التوبة:

أولاً: الآيات القرآنية التي تحت على التوبة

ثانياً: الأحاديث النبوية التي تدعو وتحت على التوبة:

الله عز وجل يدعو جميع المذنبين إلى التوبة:

حال الأنبياء مع التوبة:

فضل وفوائد التوبة:

- ١- التوبة سبب للفوز بمحبة الله تعالى.
 - ٢- التوبة طاعة لأمر الله تعالى.
 - ٣- التوبة سبب للفلاح في الدنيا والآخرة.
 - ٤- التوبة سبب للخروج من دائرة الظالمين.
 - ٥- التوبة سبب للفوز برحمة الله تعالى.
 - ٦- التوبة سبب لطهارة ونقاء القلب.
 - ٧- التوبة والاستغفار سبب لسعة الرزق وزيادة في القوة.
 - ٨- التوبة سبب لمغفرة الذنوب.
 - ٩- التوبة سبب لتبديل السيئات إلى حسنات.
- وقد أوصى رب العالمين والنبي الأمين ﷺ أن يتبع الإنسان السيئة الحسنة فتمحها.
- ١٠- التوبة سبب للفوز بالجنة.

فضل الابتعاد عن الكبائر:

فضل من سأل الله المغفرة باسمه الأعظم:

فضل التوبة النصوح:

مقدمه:

الإنسان في هذه الحياة الدنيا معرض للوقوع في الزلل والخطأ والنسيان والعصيان وهذه طبيعة البشر، وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " كل ابن آدم خطاءٌ ، وخير الخطائين التوابون " .

وصدق القائل حيث قال: من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط؟
والجواب: لا أحد.

ومن رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب التوبة، وحثهم على الاستغفار مهما عظمت الذنوب والأوزار.
يقول قتادة -رحمه الله-: " إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما دوائكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالتوبة والاستغفار " .

قال ابن القيم -رحمه الله- كما في " مدارج السالكين: ٦/١: ٣٠:

" التَّوْبَةُ هِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالَّذِينَ كُلُّهُمْ دَاخِلٌ فِي مُسَمَى التَّوْبَةِ وَبِهَذَا اسْتَحَقَّ التَّائِبُ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ. فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ الرُّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَى مَا يُحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيَدْخُلُ فِي مُسَمَّاها الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ، وَتَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَقَامَاتِ، وَلِهَذَا كَانَتْ غَايَةً كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَبِدَايَةَ الْأَمْرِ وَخَاتِمَتَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي وُجِدَ لِأَجْلِهَا الْخَلْقُ، وَالْأَمْرُ وَالتَّوْحِيدُ جُزْءٌ مِنْهَا، بَلْ هُوَ جُزْؤُهَا الْأَعْظَمُ الَّذِي عَلَيْهِ بِنَاؤُهَا. وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَ التَّوْبَةِ وَلَا حَقِيقَتَهَا، فَضَلَّاهُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا وَحَالًا، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى مَحَبَّتَهُ لِلتَّوَّابِينَ إِلَّا وَهُمْ خَوَاصُّ الْخَلْقِ لَدَيْهِ. وَلَوْلَا أَنَّ التَّوْبَةَ اسْمٌ جَامِعٌ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنِ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ذَلِكَ الْفَرَحَ الْعَظِيمَ، فَجَمِيعُ مَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ هُوَ تَفَاصِيلُ التَّوْبَةِ وَأَثَارُهَا. اهـ

شروط التوبة:

- ١- أن تكون التوبة خالصة لوجه الله تعالى، فلا يُراد بها الدنيا أو مدح الناس وثناؤهم.
- ٢- الإقلاع عن المعصية.
- ٣- الندم على فعلها.
- ٤- العزم على ألا يعود إليها أبدًا.
- ٥- أن تكون التوبة في وقت القبول. (يعني قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت).
- ٦- إن كان الذنب متعلق بحق من حقوق العباد، فيشترط لصحة التوبة أن يؤدي ذلك الحق إلى صاحبه، أو يعفو عنه صاحب الحق.

علامات صحة التوبة:

أن يكون العبد بعد التوبة خيراً منه قبلها؛ فيكثر من عمل الصالحات، ومُصاحبة أهل الصلاح، ويحرص على ترك المعاصي والسيئات، والابتعاد عن أهل الزين والانجراف، وأن يكون الخوف مُصاحباً له فلا يأمن من مكر الله.

قال ابن القيم-رحمه الله:- "التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠) فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاین ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومنها: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقت بين يدي ربه طريقًا ذليلاً خاشعًا، كحال عبد جان أبى من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدءًا ولا عنه غناء ولا منه مهرًا، وعلم أن حياته وسعاده وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جانياته، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه وعلمه بضغفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده، فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربها بها من سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

فله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتي، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقرى إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضريع، سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه وذلل لك قلبه. اهـ

وقال ابن القيم-رحمه الله:- " فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، حتى يقول عدو الله يا ليتني تركته ولم أوقعه، وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفاً منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول: فعلت وفعلت؛ فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك ". اهـ

جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحت على التوبة وتدعو إليها:

أولاً: الآيات القرآنية التي تحت على التوبة كثيرة، نذكر منها:

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُعْثَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿

(الزمر: ٥٣-٥٨)

أخرج الإمام أحمد من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " مَا أَحَبُّ أَنَّ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

وأخرج البخاري عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنُوا فَأَكْثَرُوا. فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَّوْ تَخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً. فَنَزَلَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (الفرقان: ٦٨)، وَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ عَلَى قَاصٍّ وَهُوَ يَذْكُرُ النَّاسَ، فَقَالَ: " يَا مُذَكِّرُ لِمَ تُقْنَطُ النَّاسُ؟ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

وَيَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: " إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣)، وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَقْوِيضًا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿ (الطلاق: ٣، ٢). فَقَالَ لَهُ مَسْرُوقٌ: صَدَقْتَ.

قال السعدي -رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: " يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ركم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تتفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مألئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهر، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم.

ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله ﴿إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ} مجيئاً لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك. ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة، والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَتَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكل هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة. ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة. و ﴿تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في جانب حقه. ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ في الدنيا ﴿لَمِنَ السَّآخِرِينَ﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ و "لو" في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون

متقيا له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست "لو" هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضحل كل حجة باطلة. ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لكنت ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمني باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لو رُدَّ، بيان بعد البيان الأول. اهـ

٢- وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِبِينَ الْغِيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (آل عمران: ١٣٣-١٣٦)

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا مقلعين عنها ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه ". (تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠٨)

وجاء في تفسير ابن المنذر-رحمه الله-: " أن الصحابة رضي الله عنهم - كانوا مجتمعين عند ابن مسعود ؓ فتذكروا بني إسرائيل وما أعطاهم الله من فضائل، فقال عبد الله بن مسعود: " كان الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب ذنباً كُتِبَ ذنبه على باب داره، وكُتِبَ معه كفارة ذلك ليغفر ذلك الذنب، أما أنتم - يقصد أمة النبي ﷺ - فجعل الله مغفرة ذنوبكم قول تقولونه بألسنتكم، ثم تلا قول الحق: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فقال ابن مسعود ؓ: والله ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ".

فالأمة المحمدية بكرامتها الله تعالى جعل توبتها قول باللسان، وعزم بالقلب على الإقلاع، فتوبة هذه الأمة أسهل تتاولاً، وأسرع قبولاً.

٣- وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٧)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسير هذه الآية: " توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا- أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرما منه وجودا، لمن عمل السوء أي: المعاصي ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تتول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبا عليها ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعا. وأما بعد حضور الموت فلا يقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

وقال هنا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المعاصي فيما دون الكفر. ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار. ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي: قريب من فعلهم للذنوب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة. والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه، فإنه سد على نفسه باب الرحمة. نعم قد يوفق الله عبده المصّر على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة التي يمحو بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جنایاته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها فيجازي كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم. اهـ.

٤- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (التحريم: ٨).

مفهوم التوبة النصوح كما قال ابن القيم-رحمه الله:- " والتوبة النصوح تتضمن ثلاثة أشياء: الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته. الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزمته مبادراً بها. الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القاذحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقذح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة ". اهـ (مدارج السالكين)

قال الحسن البصري-رحمه الله- عن التوبة النصوح: " هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مُجمِعاً على أن لا يعود فيه ". وهذه التوبة لا بد أن يجمعها أربعة أشياء وهي: " الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان ". (المصدر السابق).

يقول ابن القيم-رحمه الله:- " إذا تاب العبد توبة نصوحاً صادقة خالصة أحرقت ما كان قبلها من السيئات، وأعادت عليه ثواب حسناته يُوضَّحُ هذا أنَّ السيئات والذنوب هي أمراضٌ قلبية، كما أن الحمى والأوجاع أمراضٌ بدنية، والمريض إذا عوفي من مرضه عافية تامة عادت إليه قوته وأفضل منها، حتى كأنه لم يَضْعُفْ قط؛ فالقوة المتقدمة بمنزلة الحسنات، والمرض بمنزلة الذنوب، والصحة والعافية بمنزلة التوبة سواء بسواء. وكما أن من المرضى من لا تعود إليه صحته أبداً؛ لضعف عافيته، ومنهم من تعود صحته كما كانت؛ لتقاوم الأسباب وتدافعها، وعَوِدَ البدن إلى كماله الأول، ومنهم من يعود أصحَّ مما كان وأقوى وأنشط؛ لقوة أسباب العافية وقهرها وغلبتها لأسباب الضعف والمرض، حتى ربما كان مرض هذا سبباً لعافيته، كما قال الشاعر: لعل عَثْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ وربما صَحَّتْ الأجسام بالعلل

فهكذا العبد بعد التوبة على هذه المنازل الثلاث، والله الموفق، لا إله غيره، ولا رب سواه ". اهـ

(الوابل الصيب: ١ / ٢٤)

٥- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨-٧٠)

قال ابن القيم-رحمه الله:- "وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى؛ أنه يبذل سيئاته حسنات. وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)، فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد. ولكن هذا في حق التائبين خاصة". اهـ (الداء والدواء ص: ٣٨٥)

وقال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي نفس المسلم والكافر المعاهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كقتل النفس بالنفس وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يحل قتله. ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا فسوف ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر. وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناولها الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود، ﴿وَأَمَّنَ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله. ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية. وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: يا رب إن لي سيئات لا أراها ها هنا " والله أعلم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم ". اهـ

٦- وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤)

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: الصَّحابة وهؤلاء الفقراء ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي: قضى على نفسه الرحمة، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال مُجَاهِدٌ: لَا يَعْلَمُ حَلَالًا مِنْ حَرَامٍ فَمِنْ جَهَالَتِهِ رَكِبَ الذَّنْبَ، وَقِيلَ: جَاهِلٌ بِمَا يُورِثُهُ ذَلِكَ الذَّنْبُ، وَقِيلَ: جَهَالَتُهُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ أَثَرُ الْمَعْصِيَةِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْعَاجِلُ الْقَلِيلَ عَلَى الْآجِلِ الْكَثِيرِ، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، رَجَعَ عَنْ ذَنْبِهِ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، وقيل: أَخْلَصَ تَوْبَتَهُ، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (انظر تفسير البغوي "معالم التنزيل")

- قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "ولما نهى الله رسوله، عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيِّهم ورحِّب بهم ولقِّهم منك تحية وسلاماً، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك. ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع، والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة. فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

٧- وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٩)

"فتح الله تعالى لعباده باب التوبة؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾. أي: فمن تاب إلى الله تبارك وتعالى توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يقبل توبته، ويغسل حوبته، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه وتعالى فتح لعباده باب التوبة والإنابة". (التفسير الوسيط)

- قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب ". اهـ

٨- وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (سورة هود: ٣)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم، بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي: يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به وتنتفعون. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتكم به ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

٩- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء: ١١٠)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم ثم استغفر الله استغفارًا تامًا يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة. فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي "سوءًا" لكونه يسوء عامله بعاقبته، وكونه في نفسه سيئًا غير حسن. وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس "ظلمًا" لأن نفس العبد ليست ملكا له يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بالزامها للصرات المستقيم علمًا وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم". اهـ

١٠- وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ (غافر: ٣)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ من التائبين، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل. فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده، المألوه الذي تخلص له الأعمال قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن، من المعاني. فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك، من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات ". اهـ

١١- وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان. ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابَعَ الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر، للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

١٢- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٥٣)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من شرك وكبائر، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى، وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا وآمَنُوا بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات، ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها ". اهـ

١٣- وقال تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ

وَلَا نَصِيرٍ﴾ (التوبة: ٧٤)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم {ليخرجن الأعز منها الأذل} والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول. فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا. قال تعالى مكذبا لهم ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فإسلامهم السابق - وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر. ﴿وَهُمْوَمَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم. ﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ الحال أنهم ﴿مَا نَقَمُوا﴾ وعابوا من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنيا لهم بعد الفقر، وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه، ويؤمنوا به ويجلوه؟" فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية. ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأن التوبة، أصل لسعادة الدنيا والآخرة. ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة، في عذاب السعير. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فنمَّ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان ". اهـ

١٤- قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٥٩، ٦٠)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي آكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم، حصلوها، وعلى- أي: وجه اتفقت تناولوها. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها، ﴿وَأَمَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذي جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفا عددها ". اهـ

١٥- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الشورى: ٢٥)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتمام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعد ما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدنيوية. ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريما، كأنه ما عمل سوءا قط، ويحبه ويوفقه لما يقر به إليه. ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فالله تعالى، دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له- إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾". اهـ

١٦- قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨)

فتوبة العبد تكون مسبقة بتوبة من الله قبلها؛ وهي إذن وتوفيق، وتوبة من الله بعدها؛ وهي قبول وإثابة، كما جاء في الآية السابقة. فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى.

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ عن الخروج مع المسلمين، في تلك الغزوة، وهم: "كعب بن مالك" وصاحبا، وقصتهم مشهورة معروفة، في الصحاح والسنن. ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضييق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء. ﴿وَوَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أذن في توبتهم ووقفهم لها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عبادته، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها. ومنها: لطف الله بهم وتبئيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر. ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب ولا يحرص إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة. ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين. ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خَلَفُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُتَّ في قبول عذرهم، أو في رده] وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: "تخلفوا". ومنها: أن الله تعالى مَنَّ عليهم بالصدق ". اهـ

١٧- وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر: ٧- ٩)

قال السعدي- رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: " يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديسهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة -عليهم السلام-، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصًا التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: " سبحان الله وبحمده " فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفوائده الكثيرة جدًا، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم. ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها -غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غايتها مجرد مغفرة الذنوب- ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك، بتوحيديك وطاعتك. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ -أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على السنة رسلك ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم

ورفقائهم ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ القاهر لكل شيء، فبعزتكم تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمرا تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت بها على السنة رسلك، واقتضاها فضلك، المغفرة للمؤمنين. ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الأعمال السيئة وجزائها، لأنها تسوء صاحبها. ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ لأن رحمتك لم تنزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقبته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه ". اهـ

١٨- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٤) قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر. ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فلو، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] مرارا. ولا يمل الله من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه، ومولاتهم عدوهم. {الرَّحِيمُ} الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله ". اهـ

١٩- وقال الله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "ثم ذكر قولهم واستتصارهم لربهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستتصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ". اهـ

٢٠- وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: توبة تلم شعنكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: يميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: [أن] تتحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين.

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى مَنْ الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين، وتخيروا أحسن الطريقتين ". اهـ

٢١- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (البروج: ١٤)

فهو غفور لمن تاب إليه، ودودٌ يتودد إلى عباده وهو الغني عنهم.

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأتاب. ﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبه في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبه أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا على أهلها، وهو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن ﴿الْوَدُودُ﴾ بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأتابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود- كما قاله بعض الغالطين-، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فאלله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر. فله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه ". اهـ

٢٢- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان: ٧١)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله تعالى الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها ". اهـ

ثانياً: الأحاديث النبوية التي تدعو وتحث على التوبة:

أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ."

فلا تزال التوبة مقبولة، حتى إذا طلعت الشمس من مغربها امتنعت التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨)، وللتوبة حد آخر؛ وهو أن يتوب الإنسان قبل غزرة الموت، وهي وصول الروح إلى الحلقوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التُّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ (النساء: ١٨)

وأخرج ابن ماجه من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: " لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتنم لتاب عليكم ". (صحيح ابن ماجه: ٣٤٤٥) (صحيح الجامع: ٥٢٣٥) (الصحيح: ٩٠٣)

وأخرج الترمذي من حديث صفوان بن عسال ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا، عَرْضُهُ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ؛ مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْ قِبْلِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ (الأنعام: ١٥٨) ". (صحيح الترمذي: ٢٨٠١)

- وفي رواية: " إِنَّ مِنْ قِبَلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَابًا مَفْتُوحًا، عَرْضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ، لَمْ يَنْفَعِ نَفْسًا إِيْمَانُهَا، لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ". (صحيح ابن ماجه: ٣٣٠٥)

- وفي رواية: " إِنَّ لِلتَّوْبَةِ بَابًا عَرْضُ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ". (صحيح الجامع: ٢١٧٧)

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **"إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغَرْ"**. (صحيح الترمذي: ٣٥٣٧) (صحيح الجامع: ١٩٠٣)

والمُرَادُ بالغَرْغَرَةِ، أي: ما لم تبلُغْ رُوحَهُ حُلُقُومَهُ، فيكونُ بمنزلةِ الشَّيْءِ الَّذِي يَتَغَرَّغُرُ بِهِ الْمَرِيضُ، وهذا مِصْدَاقُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ (النساء: ١٧، ١٨)

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدَلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدَلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَأَلَى أَيْتَهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ دُكِرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ.**

- وفي رواية: **"كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنْتَ قَرِيءٌ كَذَا وَكَذَا، فَأَذْرَكَ الْمَوْتَ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرِ، فَغَفَرَ لَهُ.** (البخاري)

وأخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَا تَتَيْنُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ"**. (صحيح الترغيب: ١٦١٦) (السلسلة الصحيحة: ١٢٧) (صحيح الجامع: ٤٣٣٨)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكْتُبُوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكْتُبُوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكْتُبُوها له حسنة، فإن عملها فاكْتُبُوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف".

وفي هذا الحديث القدسيّ يخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل يقول للملائكة: "إذا أراد عبدي" ذكرًا كان أو أنثى "أن يعمل سيئة" والإرادة: هي العزم على الشيء، فمن هم بعمل السيئة وقصد أو عزم عليها فقط -كما في رواية مسلم: "إذا هم عبدي"؛ فالمراد حديث النفس الذي لا يستقر - فإنه مغفور؛ ولذلك قال سبحانه: "فلا تكتبوها عليه حتى يعملها"، وهذا من إمهال الله للعبد حتى يتوب ويرجع عن عمل السيئة، والعمل يُراد به عمل القلب والجوارح، فإن عملها فاكْتُبُوها عليه بمثلها من غير تضعيف، وهذا من رحمة الله سبحانه بعباده. "وإن تركها من أجلي"، أي: خوفًا من الله عز وجل، فاكْتُبُوها له حسنة واحدة غير مضاعفة، والمراد من هذا: أن التَّرك للسيئة لا يكتب حسنة إلا إذا كان خوفًا من الله تعالى، أو حياءً من الله تعالى، وأيهما كان فذلك التَّرك هو التوبة من ذلك الذنب، وإذا كان كذلك فالتوبة عبادة من العبادات، إذا حصلت بشروطها أذهبت السيئات، وأعقبت الحسنات. "وإذا أراد عبدي أن يعمل حسنة" فهم بها أو فكر في فعلها "فلم يعملها فاكْتُبُوها له حسنة" كاملة لا نقص فيها، وهذا من فضل الله على عباده، "فإن عملها فاكْتُبُوها له بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف" وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠).

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسيه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرب إلي بشيرٍ تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا^(١)، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة^(٢)".

- وفي رواية: "قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك، ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأٍ، ذكرتك في ملأٍ من الملائكة -أو قال: ملأٍ خيرٍ منهم- وإن دنوت مني شبرًا، دنوت منك ذراعًا، وإن دنوت مني ذراعًا، دنوت منك باعًا، وإن أتيتني تمشي أتيته هرولة".

(أخرجه الإمام أحمد والطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه) (صحيح الجامع: ٤٣٣٧)

١ - الباع: طول ذراع الإنسان وعضديه. يعني المسافة بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يمينًا وشمالًا.
٢ - الهرولة في اللغة: الإسراع في المشي دون العدو، وصفة الهرولة لله عز وجل كما تليق به، ولا تشابه هرولة المخلوقين.

أخرج الإمام أحمد من حديث شريح وهو ابن الحارث القاضي قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: يا ابن آدم! قم إليّ أَمْشِ إِلَيْكَ، وَاَمْشِ إِلَيَّ أَهْزُولُ إِلَيْكَ". (صحيح الترغيب: ٣١٥٣) (صحيح الجامع: ٤٣٤٠) (الصحيح: ٢٢٨٧)

وهذه الأحاديث تدل على رحمة الله تعالى بخلقه، وكريم لطفه وبره بعباده، فإن الله يمهد الطريق لطاعته ويذل السبيل لعبادته، فإذا أذنب العبد منحه الله الفرصة ودعاه إلى الإنابة والعودة، وإذا تقرب العبد إلى الله تعالى؛ تقرب الله منه، وإذا تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه، والله أسرع إلى عبده بالمغفرة من عبده إليه بالتوبة. حقاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٨٣)

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي نر الغفاري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ... يا عبادي، إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ....".

- وأخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: "يا بن آدم إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يا بن آدم لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ (١)، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي (٢)، يا ابن آدم إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ (٣) خَطِيئًا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً".

(صحيح الترمذي: ٣٥٤٠) (صحيح الترغيب: ١٦١٦) (الصحيح: ١٢٧)

قال الشافعي - رحمه الله -:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي	جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ	بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ	تَجُودُ وَتَعْفُو مِنْهُ وَتَكْرُمَا

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي نر الغفاري رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً".

١ - عنان السماء : بفتح العين - هو السحاب.

٢ - يعني: على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاضمني ذلك، ولا أستكثره، وقد روى الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: "إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء". قال الشاعر: يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر أعظم الأشياء في جنب عفو الله يصغر

٣ - قراب الأرض : بضم القاف - هو ما يقرب من ملئها.

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ". (صحيح الجامع: ٤٥١٥)

وأخرج الإمام أحمد والحاكم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي". (صحيح الترغيب والترهيب: ١٦١٧)

- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟".

- وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ".

- وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمَلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمْ لَغَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تَخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ". (الصحيحة: ١٩٥١)

- وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا إِذَا رَأَيْنَاكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبْنَا الدُّنْيَا، وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ قَالَ: لَوْ أَنْتُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ بِأَكْفِهِمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بَيْوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ". (صحيح الجامع: ٥٢٥٣)

- وأخرج الإمام مسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لَوْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ ذُنُوبٌ، يَغْفِرُهَا اللَّهُ لَكُمْ، لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ لَهُمْ ذُنُوبٌ، يَغْفِرُهَا لَهُمْ".

- أخرج الحاكم عن البراء رضي الله عنه أن رجلاً قال له: يَا أَبَا عَمْرَةَ! قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أَهْوَ الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فَيُقَاتِلُ حَتَّى يُقْتَلَ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ هُوَ الرَّجُلُ يُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَقُولُ: لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ". (صحيح الترغيب والترهيب: ١٦٢٤)

• تحذير لمن يقنط الناس من رحمة الله:

أخرج الإمام مسلم من حديث جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلاً قال: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى^(١) عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ

١ - يتألى: يعني: يحلف.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا ^(١) بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْقَلَبَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

- وفي رواية قال: "اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ."

- وفي رواية: "لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ ^(٢)، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامَ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ."

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلِكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ.

١ - وأما فرح الله تعالى: فصفة من صفاته اللانقة به، وهو العالم بكل شيء، سبحانه وتعالى وتقدس، فلا يدخل فرحه شيء من النقص الذي يلحق فرح المخلوق.
- قال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني - رحمه الله - (ت ٤٩٩ هـ): "وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعزة، والعظمة، والإرادة، والمشينة، والقول، والكلام، والرضا، والسخط، والحياة، والبقية، والفرح، والضحك، وغيرها، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله ﷺ، من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه، ولا تكيف له ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير". اهـ (عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص: ١٦٠)
- وقال الشيخ ابن باز - رحمه الله -: "والفرح من الله جل وعلا، مثل سائر الصفات، كالرضا والغضب والرحمة والمحبة وغير ذلك، كلها صفات تليق بالله يجب إثباتها لله، على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، وليست من جنس صفات المخلوقين؛ فغضب الله، ليس كغضب المخلوقين، وفرحه ليس كفرحهم، ورضاه ليس كرضاهم، وهكذا رحمته ومحبته وكرامته، وسمعه وبصره، وغير ذلك: كلها صفات كاملة تليق بالله، لا يشابه فيها خلقه سبحانه وتعالى؛ لقول الله عز وجل في كتابه العظيم: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: ١١)، ولقوله سبحانه: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (سورة النحل: ٧٤) وقوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص). وهذا هو قول أهل السنة والجماعة قاطبة جميعاً، وهم أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان". اهـ

ولا يسأل عن شيء من صفاته تعالى بكيف؟ بل نؤمن بصفاته دون تكيف أو تشبيه أو تعطيل، كما نؤمن بذاته تعالى، ونقول كما قال الأئمة: "لا تبلغه الأوهام، ولا تتركه الأفهام، ولا يشبهه الأنام". اهـ (عقيدة الطحاوي رحمه الله ص: ٨).

- وقال ابن قدامة - رحمه الله -: "لا تمثله العقول بالتفكير، ولا تتوهمه القلوب بالتصوير، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى: ١١)". اهـ (لمعة الاعتقاد ص: ٥)

٢ - بِدَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ: والدَوِيَّةُ: بفتح الدال المهملة وتشديد الواو والياء المثناة معا وهي الأرض القفر والفلأة الخالية، والبرية والصخرات التي لا نبات فيها.

وأخرج البخاري من حديث عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَفَزَعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ، قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا، تَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟! قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا، فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّمَا أَهْلُكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا. ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا، فَحَسَنْتَ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَارْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

- وفي رواية: "أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ بِهَا الَّذِينَ سَرَقْتَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ سَرَقَتْنَا! قَالَ قَوْمُهَا: فَحَنُّ نَفْدِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْطَعُوا يَدَهَا فَقَالُوا: نَحْنُ نَفْدِيهَا بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ. فَقَالَ: اقْطَعُوا يَدَهَا. فَقُطِعَتْ يَدُهَا الْيُمْنَى. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ". (أخرجه الإمام أحمد عن ابن عمرو)

(قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح)

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا".

وفي هذا الحديث يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ عَظِيمَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ "يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ" والمعنى: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ وَإِنْ تَأَخَّرَتْ بَعْدَ ارْتِكَابِ الذَّنْبِ، فَالتَّوْبَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَأْمُورًا بِهَا عَلَى الْفَوْرِ إِلَّا أَنَّهَا إِذَا تَأَخَّرَتْ قَبْلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا بِالنَّهَارِ وَتَابَ بِاللَّيْلِ قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ، وَإِنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا بِاللَّيْلِ وَتَابَ بِالنَّهَارِ قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ، وَبَسَطَ يَدَهُ سُبْحَانَهُ يَتَلَقَّى بِهِمَا تَوْبَةَ التَّائِبِ فَرَحًا بِهَا وَقَبُولًا لَهَا.

وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بِالْعِبَادِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا قَبِيلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ يُغْلَقُ، فَلَا تُقْبَلُ بَعْدَ تِلْكَ الْعَلَامَةِ تَوْبَةُ أَحَدٍ، وَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨)

وفي الحديث إثباتُ صِفَةِ الْيَدِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَنُؤْمِنُ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ.

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ."

تنبيه: وقوله سبحانه وتعالى: "فليعمل ما شاء" ليست دعوة لفتح باب المعصية، حاشاه سبحانه، فهو تعالى يريد أن يتوب علينا، ويعطى الأجر الكبير والثواب العظيم لمن ترك الذنوب مخافة منه.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: إذا أرادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاتَّكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ."

فالمقصود من قوله: "فليعمل ما شاء": والله أعلم؛ أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا تابَ من ذنبه واستغفرَ ولم يعد إليه بدليل قوله: "ثم أصاب ذنبًا آخر" فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أنه يذنب الذنب، فيستغفر منه، بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده، فإن هذه توبة الكذابين.

وقد بَوَّبَ النووي -رحمه الله- على هذا الحديث قوله: باب "قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة". وقال في شرحه: هذه المسألة تقدمت في أول كتاب التوبة، وهذه الأحاديث ظاهرة في الدلالة لها، وأنه لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر، وتاب في كل مرة: قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها: صحت توبته. (شرح مسلم: ٧٥/١٧).

وقال ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-: قال عمر بن عبد العزيز: "أيها الناس مَنْ أَلَمَ بِذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنْ عَادَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنْ عَادَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنَّمَا هِيَ خَطَايَا مَطْوُوقَةٌ فِي أَعْنَاقِ الرِّجَالِ، وَإِنْ الْهَلَكَ فِي الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا". ومعنى هذا: أن العبد لا بد أن يفعل ما قدرَ عليه من الذنوب، كما قال النبي ﷺ: كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزَّانِ فَهُوَ مَدْرَكُ ذَلِكَ لَا مُحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ". ولكن الله جعل للعبد مخرجًا مما وقع فيه من الذنوب، ومحاه بالتوبة والاستغفار، فإن فعل فقد تخلص من شر الذنوب، وإن أصر على الذنب هلك."

وكما يُبغض الله تعالى المعصية ويتوعد عليها بالذنب: فإنه لا يحب أن يقنط عباده من رحمته عز وجل، وهو يحب أن يستغفره العاصي ويتوب إليه، ويود الشيطان أن لو يقع يأس وقنوط من العبد العاصي حتى يصده عن التوبة والإنابة.

قيل للحسن البصري-رحمه الله:- ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود؟ فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا، فلا تملؤا من الاستغفار .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: " **قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا^(١) ذهبًا، فإن أصبح ذهبًا اتبغناك؛ فدعا ربه، فاتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن ربك يُقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا؛ فمن كفر منهم عذبتُه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: بل باب التوبة والرحمة .** (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٤٢)

وأخرج الحاكم من حديث عبد الله بن معقل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **دخلت مع أبي وأنا إلى جنبه عند عبد الله بن مسعود فقال له أبي: أسمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الندم توبة" .** (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٤٧) (صحيح الجامع: ٦٨٠٢)

وأخرجه الإمام أحمد وابن ماجه بلفظ: "الندم توبة"، فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: الندم توبة"، قال "نعم" . (صحيح ابن ماجه: ٣٤٤٨)

الله سبحانه هو الثواب الرحيم والغفور الكريم، وقد فتح باب رحمته لعباده العاصين مهما بلغت ذنوبهم. وفي هذا الحديث يقول التابعي عبد الله بن معقل بن مقرن: "دخلت مع أبي على عبد الله"، وهو ابن مسعود ﷺ، "فسمعتُه يقول: قال رسول الله ﷺ: الندم توبة، فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: **الندم توبة؟**"، فقال ابن مسعود ﷺ: **"نعم"**، والمراد: أن المذنب ندم على المعصية؛ لكونها معصية، وإلا فإذا ندم عليها من جهة أخرى كما إذا ندم على شرب الخمر من جهة صرف المال عليه فليس من التوبة في شيء، والذي يندم على معصيته وذنبه صدق فيه قول النبي ﷺ: **"التائب من الذنب كمن لا ذنب له"**.

وأخرج البخاري مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل" .**

١ - سُمي الصفا بهذا الاسم؛ لأن جدارته من الصفا، وهو الحجر الأملس الصلب، ويقع في أصل جبل أبي قبيس.

وأخرج الإمام مسلم من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: "أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بِأَسَاءٍ؟ تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِي الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَ، فِيمَا نَرَى، فَاتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. قَالَ: فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَرُدَّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: إِمَّا لَا فَأَذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خُرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: أَذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطَمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا، فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: مَهْلًا يَا خَالِدُ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لُغْفِرَ لَهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ.

وأخرجه أبو داود من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أَنَّ امْرَأَةً قَالَ فِي حَدِيثِ أَبَانَ مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ إِنَّهَا زَنَتْ وَهِيَ حُبْلَى فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ وَلِيًّا لَهَا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسِنِ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعْتَ فَجِئْ بِهَا. فَلَمَّا أَنْ وَضَعَتْ جَاءَ بِهَا، فَأَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَشَكَتَ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ فَصَلُّوا عَلَيْهَا. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُصَلِّي عَلَيْهَا وَقَدْ زَنَتْ؟ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا ". (صحيح أبي داود: ٤٤٤٠)

وأخرج الإمام مسلم من حديث أَبِي نُجَيْدٍ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ الْخُزَاعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلِيَّهَا فَقَالَ: أَحْسِنِ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعْتَ فَأَتِنِي فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَشَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ، قَالَ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفُوُّ اللَّهِ
أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ فِي جَانِبِ
مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ
عَفُوُّ اللَّهِ تَغْفِرُ

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيَسْلِمُ فَيَسْتَشْهَدُ".

وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث أبي نر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى وَمَنْ أَسَاءَ فِيمَا بَقِيَ أَخَذَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ".

(صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٥٦) (الصحيح: ٣٣٨٩)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ^(١) وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ^(٢)﴾، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿(هود: ١١٤) فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَيْ هَذَا؟ قَالَ: لَجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ".

وأخرجه الترمذي بلفظ: "أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً حَرَامٍ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنْ كَفَّارَتِهَا؟ فَنَزَلَتْ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلَيْ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: لَكَ وَلِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي".

وفي رواية لمسلم أنه قال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هذا فاقض في ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة، قال: بل للناس كافة.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْنِي عَلَيَّ، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْنِي فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَدْ غُفِرَ لَكَ".

وقوله: "أَصَبْتُ حَدًّا" معناه: معصية توجب التعزير، وليس المراد الحد الشرعي الحقيقي؛ كحد الزنا والخمر وغيرهما؛ فإن هذه الحدود لا تسقط بالصلاة، ولا يجوز للإمام تركها.

١ - طرفي النهار: غداة وعشية.
٢ - زلفا من الليل: ساعات منه قريبة من النهار.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَاْدِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَاْدِيَا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ".

وأخرجه البخاري ومسلم من حديث ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: قال رسول الله ﷺ: "لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَاْدِيَا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَاْدِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ".

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ".

وحاصلُ هذا الحديث أن الله تعالى سبق في علمه أنه يخلق من يعصيه، فيتوب، فيغفر له؛ وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ من عبده مقامَ العبودية الذي هو مُنتهى الذلِّ مع مُنتهى الحبِّ، وليس في الحديثِ مُواساةٌ للمُنْهَمَكِينَ في الذُّنُوبِ، وإنَّما فيه بيانُ عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى وتجاوزه عن المُذْنِبِينَ التَّائِبِينَ؛ ليرغبوا في التَّوْبَةِ إلى اللَّهِ فيتوبوا، وليُبينَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَمَا يُجَازِي الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِمْ فَإِنَّهُ يَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنِ الْمُذْنِبِينَ.

الله عز وجل يدعو جميع المذنبين إلى التوبة:

- الله عز وجل دعا الناس جميعاً إلى التوبة الصادقة. حتى دعا المشركين إلى التوبة، فقال تعالى:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَفَضَّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ١١)

- ودعا إلى التوبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١)

والذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤) والذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)

والذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧) والذين قالوا: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)

والذين قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)

فدعاهم الله جميعاً إلى التوبة فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤)

قال ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: قَدْ دَعَا اللَّهُ إِلَى مَغْفِرَتِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُوْلَاءِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤) (تفسير ابن كثير)

ودعا المنافقين إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿

(النساء: ١٤٥، ١٤٦)

بل فتح الله باب التوبة لأصحاب الكبائر ليتوبوا، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ (المائدة: ٣٣) وعلى الرغم من تلك الجرائم والكبائر إلا أن الله جل وعلا دعاهم للتوبة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (المائدة: ٣٤)﴾

وها هم أصحاب الأخدود الذين حرّقوا المؤمنين والمؤمنات، وظلموهم بلا ذنب اقترفوه سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد. هؤلاء الذين فرقوا بين الأم وولدها، وقذفوا ولدها أمام عينيها في النار، وجلسوا يتلذذون بمشاهدة المؤمنين وهم يموتون في النيران، وعلى الرغم من ذلك يفتح الله لهم باب التوبة ليتوبوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿ (البروج: ١٠) فقله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يفيد أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رحمه الله-: انظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ!. (تفسير ابن كثير)

وها هم أهل الشرك والقتل والزنا يفتح الله أمامهم باب التوبة، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿ (الفرقان: ٦٨، ٦٩) ثم بعد ذلك يفتح الله لهم باب التوبة، ويقول: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ (الفرقان: ٧٠)﴾

وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يفتح الله أمامهم باب التوبة لكي يتوبوا قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩)﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿ (مريم: ٥٩، ٦٠)﴾ ودعا إلى التوبة الذين يكتمون العلم ويضللون الناس:

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّاٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٥٩، ١٦٠)

قال القرطبي -رحمه الله-: "وَلَا يَكْفِي فِي التَّوْبَةِ عِنْدَ عُلَمَائِنَا قَوْلُ الْقَائِلِ: قَدْ تُبْتُ، حَتَّى يَظْهَرَ مِنْهُ فِي
الثَّانِي خِلَافُ الْأَوَّلِ، فَإِنْ كَانَ مُزْتَدًّا رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ مُظْهِرًا شَرَائِعَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعَاصِي ظَهَرَ
مِنْهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَجَانَبَ أَهْلَ الْفَسَادِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ جَانَبَهُمْ
وَحَالَطَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهَكَذَا يَظْهَرُ عَكْسَ مَا كَانَ عَلَيْهِ". اهـ (تفسير القرطبي: ٢/ ١٨٧)

ودعا إلى التوبة المسرفين على أنفسهم بالمعاصي من أمة الحبيب النبي ﷺ، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا
عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)
- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظِلْمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء: ١١٠)

كما دعا إليها المؤمنين الصادقين. فأمر الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ بالتوبة بعد إيمانهم وهجرتهم
وجهادهم وصبرهم، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)
ومع كل هذه الأدلة التي تُتْلَج الصدور وتبين سعة رحمة الله جل وعلا، إلا أننا لا ينبغي أن نتهاون
بعواقب الذنوب والمعاصي، فإن الله كما وصف نفسه بأنه غفور رحيم، فقد وصف نفسه بأنه شديد
العقاب، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨)

وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (غافر: ٣)

وقال تعالى: ﴿يَبْنَ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠)

فقد يستصغر الإنسان ذنباً وهو عند الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾

(النور: ١٥)

وَكَبِيرَهَا فَهِيَ الْتَقَى	خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا
أَرْضِ الشَّوْكِ يَحْذُرُ مَا يَرَى	كُنْ فَوْقَ مَا شِ فَوْقَ
إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى	لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً

وقد دخلت امرأة النار في هرة:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- ﷺ قال: قال رسول الله
ﷺ: "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمَهَا، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ".

حال الأنبياء مع التوبة:

الأنبياء عصمهم الله من الوقوع في الذنب، لكن قد يفعل أحدهم خلاف الأولى، مما يجعله يبادر إلى التوبة والأوبة.

١- آدم -عليه السلام:-

قال الله تعالى حكاية عن آدم وزوجه حواء-عليهما السلام:- ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٣)

٢- نوح -عليه السلام:-

لما دعا نوح ربه في شأن ابنه الكافر: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة هود: ٤٥)
فلامه ربه على مقاتته هذه، وأعلمه أنه ليس من أهله، وأن هذا منه عمل غير صالح: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة هود: ٤٦)
فسأل ربه المغفرة وتاب، قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة هود: ٤٧)

قال الله تعالى حكاية عن نوح-عليه السلام:- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (سورة نوح: ٢٨)

٣- إبراهيم عليه السلام:-

قال تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (سورة إبراهيم: ٤١)

٤، ٥- كلیم الرحمن موسی، وأخيه هارون -عليهما السلام:-

أراد موسی-عليه السلام- نصره الذي من شيعته، فوكل خصمه القبطي فقضى عليه، فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة القصص: ١٥)

واستغفر موسی لذنبه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة القصص: ١٦)

وقال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ يُدَايِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا أَفْتَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

(سورة الأعراف: ١٥٥)

وقال تعالى إخباراً عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

(سورة الأعراف: ١٥١)

٦- وعن أبناء يعقوب - عليهم السلام -:

قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿

(سورة يوسف: ٩٧، ٩٨)

٧- داود - عليه السلام -:

وقال تعالى عن نبيه داود - عليه السلام -: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

(سورة ص: ٢٤)

٨- سليمان - عليه السلام -:

وقال تعالى عن نبيه سليمان - عليه السلام -: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (سورة ص: ٣٥)

٩- ذو النون (يونس) - عليه السلام -:

قال تعالى عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٧)

١٠- سيد الخلق وحبيب الحق؛ النبي ﷺ:

من المعلوم من الدين بالضرورة عصمة النبي ﷺ من الذنوب والخطايا، وأن الله عز وجل غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ (سورة الفتح: ٢٠١)

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: **أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا ...** الحديث.

قال ابن كثير -رحمه الله-: هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره: غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم للرسول ﷺ، وهو صلوات الله وسلامه عليه في جميع أموره علي الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينالها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة". (تفسير القرآن العظيم: ٣١٠/٧)

• ومع هذا كان النبي ﷺ كثير الاستغفار والتوبة امتثالاً لأمر ربه عز وجل:

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاكُمُ﴾ (سورة محمد: ١٩)

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٠٦)

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (سورة غافر: ٥٥)

- وأخرج الطبراني وأبو نعيم في "أخبار أصبهان" عن أبي موسى الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **"ما أصبحتُ غداةً قطُّ إلا استغفرتُ الله فيها مائةَ مرّةٍ"**. (الصحيحة: ١٦٠٠) (صحيح الجامع: ٥٥٣٤)

- وأخرج الإمام مسلم من حديث الأغر المزني ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **"إنه ليغان على قلبي^(١)، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليومِ مائةَ مرّةٍ"**.

- وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"والله إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في كلِّ يومٍ سبعينَ مرّةً^(٢)"**.

- وفي رواية عند الترمذي بلفظ: **"إني لأستغفرُ الله في اليوم سبعين مرة"**. (صحيح الجامع: ٢٤٨٣)

- وفي رواية: **"إني لأتوبُ إلى الله تعالى في اليوم سبعين مرة"**. (صحيح الجامع: ٢٤٧٧)

وأخرج النسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ جمع الناس فقال **"يا أيُّها النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مائةَ مرّةٍ"**. (ذكره الإمام مسلم بنحوه)

١- إنه ليغان على قلبي: الغين: الغيم الذي يكون في السماء، والمراد هنا ما يغشى القلب ويغطيه، أراد ﷺ ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى، فإن غرض له وقتاً ما عارض بشري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما؛ عد ذلك ذنباً وتقصيراً، فيفرع إلى الاستغفار. (انظر: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: ٣ / ٢١١) (شعب الإيمان للبيهقي: ٤٠٤/١٠).

٢- قال الشوكاني -رحمه الله-: وينبغي الأخذ بالأكثر وهو رواية المائة، فيقول في كل يوم: أستغفر الله وأتوب إليه مائة مرة، فإن قال: اللهم إني أستغفرك فاعفر لي، وأتوب إليك فتب عليّ، فقد أخذ بطرفي الطلب، والله سبحانه وتعالى غافر الذنب قابل التوب". اهـ (تحفة الذاكرين ص ٤٠١)

- وعند البخاري في "الأدب المفرد" من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **"توبوا إلى الله تعالى، فإني أتوبُ إليه كلَّ يومٍ مائةً مرةً"**. (صحيح الجامع: ٣٠٠٥)

• وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يحصون له في مجالسه كثرة استغفار ويعدونّه.

فقد أخرج النسائي في الكبرى وابن حبان من حديث أبي هريرة ؓ قال: **"ما رأيْتُ أحدًا أكثرَ لأنْ يقولَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ"**.

- ومروا بنا الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: **"إن كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسولِ اللهِ ﷺ في المجلسِ يقولُ: رَبِّ اغْفِرْ لي، وثُبِّ عليّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ مائةً مرّةً"**.

- وأخرج الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس -رضي الله عنهما- أن النَّبِيَّ ﷺ قامَ في الكعبةِ، فسبَّحَ، وكبَّرَ، ودعا اللهَ، واستغفَرَهُ، ولم يركعْ، ولم يسجدْ.

- وأخرج الإمام مسلم من حديث عليّ بن أبي طالب ؓ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: **"وَجَّهْتُ وَجْهِي^(١) لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا^(٢)، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَأَغْفِرْ لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. وَإِذَا رَكَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمَخِيَ، وَعَظَمِي وَعَصَبِي. وَإِذَا رَفَعَ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ. وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّسْلِيمِ وَالتَّسْلِيمِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"**.

١ - وجهت وجهي: قصدت بعبادتي للذي فطر السماوات والأرض، أي ابتداء خلقها.
٢ - حنيفًا: قال الأكثرون: معناه مائلًا إلى الدين الحق وهو الإسلام وأصل الحنف الميل. ويكون في الخير والشر. وينصرف إلى ما تقتضيه القرينة، وقيل: المراد بالحنيف، هنا المستقيم. (قاله الأزهري وآخرون) وقال أبو عبيد: الحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم عليه السلام.

وأخرج الإمام مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثاً، ثم قال: "اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، وقال الوليد - أحد رواة الحديث - فقلت: للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله".

- وأخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: "كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ (١)".

- وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ إذا قام مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّئُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَوْ: لَا إِلَهَ غَيْرُكَ". وزيد في رواية: "ولا حول ولا قوة إلا بالله".

- وأخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ اسْتَغْفِرَ مِائَةَ مَرَّةٍ ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، أَوْ: إِنَّكَ تَوَّابٌ غَفُورٌ".

وأخرج أبو داود من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: "إِنْ كُنَّا لِنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: "رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ". (صحيح أبي داود: ١٥١٦)

وأخرج الحاكم من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس إلا قال: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ"، فقلت له: يا رسول الله! ما أكثر ما تقول هؤلاء الكلمات إذا قمت، قال: "لا يقولهنَّ من أحد حين يقوم من مجلسه إلا غفر له ما كان منه في ذلك المجلس".

١ - ومعنى قول عائشة رضي الله عنها: "يتأول القرآن": أي يفعل ما أمر به في قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا).

فضل وفوائد التوبة:

١- التوبة سبب للفوز بمحبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا. والمتطهر: هو الإنسان الممتنزه عن الفواحش والأفذار. أي: إن الله - تبارك وتعالى - يحب عباده الذين يكثر الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصي والآثام، ويرضى عنهم في الدنيا والآخرة. (التفسير الوسيط)

وقال البغوي في تفسيره: "وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحب التوابين من الذنوب، ويحب المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات، وقال مقاتل بن حيان: يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من الشرك، وقال سعيد بن جبير: التوابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب، وقال مجاهد: التوابين من الذنوب لا يعودون فيها والمتطهرين منها لم يصيبوها. والتواب: الذي كلما أذنب تاب؛ نظيره قوله تعالى: "فإنه كان للتوابين غفورا". (الإسراء: ٢٥) فإذا فاز التوابون بهذه المكانة (محبة الله) سعدوا في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم في تفسيره القيم: "ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تتجي محبة من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبدا. وقد سئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمُ﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "والله لا يعذب الله حبيبه ولكن قد يبتليه في الدنيا". اهـ

٢- التوبة طاعة لأمر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (سورة هود: ٣)

قال السعدي - رحمه الله - في تفسيره عند هذه الآية: " {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ} عن ما صدر منكم من الذنوب {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} فيما تستقبلون من أعماركم، بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه ". اهـ

٣- التوبة سبب للفلاح في الدنيا والآخرة:

- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (القصص: ٦٧)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحا متبعا فيه للرسول، ﴿فَغَسَىٰ أَنْ يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور". اهـ

- وقال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "وقوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرا وباطنا، إلى: ما يحبه ظاهرا وباطنا، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة". اهـ

وقال ابن القيم-رحمه الله-: "فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجا إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه. وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة. ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه. فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه. فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك.

فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجا إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده.

٤- التوبة سبب للخروج من دائرة الظالمين:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم. ثم قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قسم الله العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث ألبته، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب؛ ولا أظلم منه لجهله بربه، وبحقه، وبعبث نفسه، وآفات أعماله ". اهـ

٥- التوبة سبب للفوز برحمة الله تعالى:

قال نبي الله صالح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(النمل: ٤٦)

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسيره: ٦ / ١٩٢ عند هذه الآية: " وفي قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد: " بالعذاب قبل الرحمة^(١)، المعنى لما تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب، فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب، وقيل: أي لم تفعلون ما تستحقون به العقاب، لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي ترحموا ". اهـ

١- ورواه الطبري في تفسيره: (جامع البيان: ١٩ / ١٠٧).

٦- التوبة سبب لطهارة ونقاء القلب:

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْةً سَوْدَاءَ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَتْ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلَوْ قَلْبَهُ، فَهُوَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)".

(صحيح الترغيب والترهيب: ٢٤٦٩) (صحيح الجامع: ١٦٧٠)

- وفي رواية: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ؛ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْْلَوْ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٤١) (صحيح الترمذي: ٣٣٣٤)

٧- التوبة والاستغفار سبب لسعة الرزق وزيادة في القوة:

قال هود -عليه السلام- لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة هود: ٥٢)

وقال تعالى حكاية عن نوح -عليه السلام-: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (سورة نوح: ١٠ - ١٢)

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره: ٢٦٠/٨ "مطلقاً على هذه الآيات من سورة نوح: "أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين؛ أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها". اهـ

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: ٣)

قال السعدي -رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "وقوله: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلوه من أعماركم، بالرجوع إليه، بالإنابة والرجوع، عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به، وتتنفعون ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهونه. اهـ

٨- التوبة سبب لغفرة الذنوب:

- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٥، ١٣٦)

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء: ١١٠)

- وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢)

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: "أخبر الله عباده بحلمه، وعفوه وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا، ثم استغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال". (تفسير الطبري: ٧/٤٧٦)

- وأخرج أبو داود والترمذي عن زيد بن أسلم عن النبي ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من قال: **أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، الذي لا إله إلا هو، الحي القيوم، وأتوبُ إليه؛ غُفِرَ له وإن كان فرًّا من الزحف**".

(صحيح أبي داود: ١٣٤٣) (صحيح الترمذي: ٢٨٣١)

قال الشوكاني-رحمه الله-: "وفي الحديث دليل على أن الاستغفار يمحو الذنوب سواء كانت كبائر أو صغائر، فإن الفرار من الزحف من الكبائر بلا خلاف". (تحفة الذاكرين ص ٥٣٢)

- وقد مر بنا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ". أي: ما دمت تائبًا أوها منيبيًا.

- وفي رواية: **إِنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ".**

لأنه كلما عمل معصية استغفر منها استغفارًا صحيحًا، وتاب بشروط التوبة الصحيحة.

قال المنذري-رحمه الله-: " وفي قوله: (فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ) معناه والله أعلم أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا استغفر الله وتاب منه، ولم يعد إليه بدليل قوله: ثم أذنب ذنبًا آخر، فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء، لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره، لا أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكاذبين ". اهـ

- وأخرج الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب والحاكم في المستدرک من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أخطأنا يذنب، قال: يكتبُ عليه، قال: ثم يستغفرُ منه ويتوبُ؟ قال: يُغفرُ له ويتابُ عليه، قال: فيعودُ فيذنبُ؟ قال: يكتبُ عليه، ولا يملُ الله حتى تملُوا ". (قال الهيثمي في المجمع: إسناده حسن)

فهذه توبة مقبولة وإن تكرر الذنب، فإنه كلما كرر العبد التوبة مستوفياً شروطها قبلت منه، أما الاستغفار بدون توبة فلا يستلزم المغفرة، بل هو سبب من الأسباب التي تُرجي بها المغفرة.

- وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن عمر في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (سورة الإسراء: ٢٥) قال: " هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب ".

- وأخرج الإمام أحمد والحاكم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أعفر لهم ما استغفروني ". (الصحيحة: ١٠٤) (صحيح الجامع: ١٦٥٠)

- وأخرج البيهقي عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال لها - في حادثة الإفك: "... إن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله، وتوبي إليه؛ فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار ". (صحيح الجامع: ١٤٣٣) (الصحيحة: ١٢٠٨)

وقد مر بنا الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن أبي نر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: " يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أعفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أعفر لكم... ".

وأخرج الطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: مَنْ عِلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفِرْتُ لَهُ وَلَا أَبَالِي، مَالِمَ يَشْرِكْ بِي شَيْئًا ". (صحيح الجامع: ٤٣٣٠)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه أتته بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ثم قال: الحمد لله - ثلاث مرات - ثم قال: الله أكبر - ثلاث مرات - ثم قال: "سبحانك إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقيل يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله! من أي شيء ضحكت؟ قال: "إن ربك يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري". (صحيح أبي داود: ٢٦٠٢)

وأخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: "يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء^(١)، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي^(٢)، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض^(٣) خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة". (صحيح الترمذي: ٣٥٤٠) (صحيح الترغيب والترهيب: ١٦١٦)

وقد تضمن هذا الحديث ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة وهي: الدعاء مع الرجاء، والاستغفار، والتوحيد.

الأول: الدعاء مع الرجاء: ويظهر من قوله تعالى: "يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي". فإن الدعاء مأمور به، موعود عليه بالإجابة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠) فالدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه وقد تتخلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله تعالى، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب دنبا لم يرج مغفرته من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره فقله: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يعنى على كثرة ذنوبك وخطاياك ولا يتعاضمني ذلك ولا أستكثره، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء". (رواه مسلم)

١ - عنان السماء : بفتح العين - هو السحاب.
٢ - يعنى: على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاضمني ذلك، ولا أستكثره، وقد روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء". قال الشاعر: يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر أعظم الأشياء في جنب عفو الله يغفر
٣ - قراب الأرض : بضم القاف - هو ما يقرب من ملئها.

فذنوب العباد وإن عظمت عفو الله ومغفرته أعظم منها، كما مر بنا قول الإمام الشافعي:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَصَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سَلَامًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتَهُ بعفوك ربي كان عفوك أعظم

الثاني: الاستغفار؛ ويظهر في قوله تعالى: **"يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي"**. فلو عظمت الذنوب وبلغت من الكثرة عنان السماء وهو السحاب، وقيل: ما انتهى إليه البصر منها، ثم استغفر العبد ربه عز وجل فإن الله يغفرها له. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظِلُمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠)

الثالث: التوحيد، ويظهر في قوله تعالى: **"يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة"**. والتوحيد هو السبب الأعظم للمغفرة، فمن أتى به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، ومن فقدته فقد حرم المغفرة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)

قال ابن القيم - رحمه الله - في معنى قوله: "يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة". يُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوى. ومعنى "قراب الأرض" ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عز وجل فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذب بعدله وحكمته، وهو المحمود على كل حال. اهـ

قال بعضهم: "الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار. فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية ورجاء وتوكلًا وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياها كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات".

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عليّ عليه السلام قال: " كُنْتُ رَجُلًا إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي، وَإِذَا حَدَّثَنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥) (صحيح أبي داود: ١٣٤٦) (صحيح الترغيب والترهيب: ١٦٢١) - وفي رواية: " مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غَفَرَ لَهُ ". (صحيح الجامع: ٥٧٣٨)

وأخرج ابن ماجه والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن مسعود عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: " **التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** ".

(صحيح ابن ماجه: ٣٤٤٦) (صحيح الجامع: ٣٠٠٨) (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٤٥) وقوله: " **التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** "، والمعنى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا ثُمَّ تَابَ مِنْهُ تَوْبَةً نَصُوحًا وَأَقْلَعَ عَنْهُ وَنَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ وَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً مَنْ لَمْ يُذْنِبْ، بَلْ يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ؛ لِأَنَّهُ تَابَ إِلَى رَبِّهِ وَأَنَابَ لِمَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَحَرَصَهُ عَلَى رِضَاهِ وَخَوْفِهِ مِنْهُ، وَتِلْكَ صِفَاتُ الْمُتَّقِينَ، إِذَا زَالَ الذَّنْبُ زَالَتْ عُقُوبَاتُهُ وَمُوجِبَاتُهُ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ لِكُلِّ تَائِبٍ مِنْ ذَنْبٍ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)

قال ابن القيم-رحمه الله-: " فلأهل الذنوب ثلاثة أنهارٍ عظامٍ يتطهرون بها في الدنيا؛ فإن لم تف بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة فوردَ القيامة طيبًا طاهرًا فلم يحتج إلى التطهير الرابع ". (مدارج السالكين).

فالموفق هو الذي يهديه ربه إلى تلك الأنهار الثلاثة فيسبح ويغتسل بإحداها أو بها كلها ليتطهر من ذنوبه في الدنيا قبل أن يعاقب بها يوم القيامة في النار؛ وقد أخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: " **إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ". (صحيح الترمذي: ٢٣٩٦)

- وفي رواية: " **إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ عَجَلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ شَرٍّ أَمْسَكَ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ حَتَّى يُوَافِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ". (السلسلة الصحيحة: ١٢٢٠)

قال ابن القيم - رحمه الله - في موضع آخر: " فالإنسان الخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه. وقد يكون في الشخص مادتان فأيُّهما غلبَ عليه كان من أهلها، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيوافيه يوم القيامة مطهراً فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة، ويمسك عن الآخر مواد التطهير، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ومادة طيبة، وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخباثته فيدخله النار طهرة له وتصفية وسبكا، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده. (التفسير القيم)

٩- التوبة سبب لتبديل السيئات إلى حسنات:

قال تعالى: ﴿... إِنْ تَابَ وَأَمَّنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(الفرقان: ٧٠)

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبله حرام، فأتى النبي ﷺ، فسأله عن كفارتها؟ فنزلت وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ فقال: لك ولمن عمل بها من أمتي. (صحيح الترمذي: ٣١١٤)

وفي رواية لمسلم أن هذا الرجل قال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هذا فاقض في ما شئت، فقال له عمر رضي الله عنه: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين. فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة، قال: بل للناس كافة.

عن أبي طويل شطب الممدود رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: أريت رجلاً عمل الذنوب كلها فلم يترك منها شيئاً وهو مع ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها فهل لذلك من توبة؟ قال: " أليس قد أسلمت؟"، قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول الله، قال: " نعم تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك حسنات كلهن؟"، قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: " نعم"، قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى. (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٦٤)

تنبيه: الشطب في اللغة: الممدود، فصحفه بعض الرواة، وظنه اسم رجل، وقد جاء في بعض الروايات: " أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويلاً شطباً".

وأخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي عثمان قال: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرْقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ فَقُلْتُ: لِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرْقُهُ، فَقَالَ: "يَا سَلْمَانُ، أَلَا تَسْأَلُنِي: لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟". قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: "إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ". وَقَالَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سورة هود: ١١٤)

وقد أوصى رب العالمين والنبي الأمين ﷺ أن يتبع الإنسان السيئة الحسنة فتمحها:

روى الطبراني في الكبير وأحمد في الزهد عن معاذٍ ﷺ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْصِنِي، فَقَالَ: "عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَادْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ، وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ فَأَحْدِثْ لِلَّهِ فِيهِ تَوْبَةً: السِّرُّ بِالسِّرِّ، وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ" (١). (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٤٤)

- وفي رواية قال: يا رسول الله! أوصني. قال: "اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، وادكر الله عند كل حجرٍ وعند كل شجرٍ، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة، السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية". (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٥٩) (صحيح الجامع: ١٠٤٠)

وقوله: "وادكر الله عند كل حجرٍ وعند كل شجرٍ". قيل: المراد بالشجر: الحضر، وبالحجر: السفر، أي حاضر أو مسافر. وقيل: الخصب والجذب. والأظهر أن المراد به أعم من ذلك وأن المراد جميع الأماكن والأحوال. وقوله: "وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة": تكفرها. "السرُّ بالسرِّ" قيل: السر فعل القلب، "والعلانية بالعلانية" فعل الجوارح. ويحتمل أن السر أن يأتي بسيئة لا يطلع عليها أحد، فتكون توبته منها سرًا، والعلانية ما اطلع عليه الناس، فيعلن بتوبته ليحمل على السلامة، ويزول ما اعتقده فيه المطلع على قبيح فعله. (التنوير شرح الجامع الصغير: ٧/ ٢٧٧) (فيض القدير: ٤/ ٣٣٢).

وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ﷺ أَرَادَ سَفَرًا فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ: "اعْبُدِ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا"، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! زِدْنِي قَالَ: "إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! زِدْنِي، قَالَ: "اسْتَقِمْ وَلِيْحَسُنْ خُلُقُكَ". (صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٥٨)

١ - قال الهيثمي في "المجمع: ١٠ / ٧٤": "رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ". لكن الصواب فيه: أنه مرسل، عطاء لم يسمع من معاذ، لكن له شاهد يحسنه. قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وَأَبُو سَلَمَةَ لَمْ يَذْكُرْ مُعَاذًا. لَكِنْ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ". اهـ (الأمالي المطلقة: ١٣٢). (وحسنه الألباني في الصحيحة: ٣٣٢٠ بمجموع طرقه)

وأخرج الترمذي من حديث أبي ذر الغفاري ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: **" اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "**.

(صحيح الترغيب: ٢٦٥٥) (صحيح الجامع: ٩٧)

وأخرج الإمام أحمد من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أوصني، قال: إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها، قال: فقلت: يا رسول الله! أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: " هي أفضل الحسنات ". (صحيح الجامع: ٦٩٠)

وأخرج الإمام أحمد من حديث أبي ذر ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " سِتَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ بَعْدُ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ قَالَ: " أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ، وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ، وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ سَقَطَ سَوَاطُكَ، وَلَا تَقْبِضْ أَمَانَةً، وَلَا تَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ ".

(ضعفه بعض أهل العلم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٦١)

وأخرج الإمام أحمد والطبراني في الكبير عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ: كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ ^(١) ضَيِّقَةٌ قَدْ خَنَقَتْهُ ^(٢)، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً فَانْفَكَتْ حَلَقَةٌ ^(٣)، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً أُخْرَى فَانْفَكَتْ حَلَقَةٌ أُخْرَى حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ ^(٤) ".

(السلسلة الصحيحة: ٢٨٥٤) (صحيح الجامع: ٢١٩٢)

في الحديث الحث على المبادرة إلى التوبة إذا ارتكبت خطيئة، وعمل الصالحات بعدها لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (سورة هود: ١١٤). فالذي عمل سيئة ثم أتبعها بحسنة كأنه خرج من ضيق شديد إلى فضاء واسع بالحسنات. يقول المناوي -رحمه الله-: " يعني عمل السيئات يضيق صدر العامل ورزقه، ويحيره في أمره فلا يتيسر له في أموره، ويبغضه عند الناس، فإذا عمل الحسنات تزيل حسناته سيئاته، فإذا زالت انشرح صدره، وتوسع رزقه، وسهل أمره، وأحبه الخلق (فيض القدير: ٢/ ٥٢٠)

١ - درع: بالكسر: الحديد، وجمعه: أدرع، وأدراع، ودروع، تصغيرها دريع.

٢ - خنقته: لزقته ولصقت به، أي عصرت حلقة وترقوته من ضيق تلك الدرع.

٣ - انفكت حلقة: تخلصت، أي انحلت حلقة، وفك الشيء خلصه، وكل مشتكين فصلهما فقد فكهما.

٤ - إلى الأرض: أي: فضاء واسع. (فيض القدير للمناوي: ٢/ ٥٢٠)

١٠ - التوبة سبب للفوز بالجنة:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٦)

وقال تعالى: ﴿... إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٠)

وأخرج البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "سَيِّدُ الاستغفار (١) أَن يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ (٢) لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ". من قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة."

فضل الابتعاد عن الكبائر:

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١)

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

فضل من سأل الله المغفرة باسمه الأعظم:

أخرج أبو داود والنسائي من حديث محجن بن الأدرع رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد وهو يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ (٣) الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. فقال رسول الله ﷺ: "قد غُفِرَ لَهُ، قد غُفِرَ لَهُ، ثلاثاً". (صحيح النسائي: ١٣٠٠)

- وفي رواية: "سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، قَالَ: فَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ".

(أخرجه أبو داود والنسائي بريدة بن الحصيب رضي الله عنه)

اللهم ارزقنا توبة ترضيك عنا، واختم لنا بخاتمة السعادة، وارزقنا الجنة والزيادة.

١ - السيد هو الذي يفوق في الخير قومه، ويرتفع عليهم، وإنما استحق هذا الدعاء وصف "السيد" لأنه فاضل، والفاضل سيد المفضل، وهذا الدعاء قد فاق سائر صيغ الاستغفار في الفضيلة، وارتفع عليها، (انظر نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار" للعلامة السفاريني- وانظر أيضاً مدارج السالكين: ١/ ٢٢٢).

٢ - أبوء: أي أقر وأعترف.

٣ - الصَّمَدُ، أي: السَّيِّدُ الَّذِي كَمَلَ سُوْدُودُهُ، الَّذِي يَصْمُدُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي حَوَاجِهِمْ وَأُمُورِهِمْ.

وبعد...

فهذا آخر ما تيسر جمعه في هذه الرسالة.
وأسأل الله - تعالى - أن يكتب لها القبول، وأن يتقبلها مني بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.
هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخلا جلّ من لا عيب فيه وعلا
فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيباً
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
هذا والله - تعالى - أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك